الباب الأول : اللغة الإنسانية الأولى

- مذاهب العلماء فى نشأة اللغة.
- أىُ الأجناس أسبق: الأسماء أو الأفعال أو الحروف؟

تمهيـــد:

ثبتت ضرورة اللغة للإنسان – منذ نشأته – إذ لابد له من أداة يعبر بها عما يريد، وقد ارتقت تلك الأداة إلى حد استخدام الأصوات، التى صدرت من جهاز النطق الدقيق عنده وهو يستخدم هذا الجهاز منذ خلقه الله، وما صدر عنه من أصوات كونت بطريقة خاصة، كانت صدى لتجاربه، وما مر به من أمور، وكان لها قواعدها التى اتبعها، وسار على نهجها، وكذلك مفرداتها التى استمد منها مادة الكلام، ومعانيها التى تم استخدامها فى إطار البيئة التى نشأ فيها والحاجات التى تطلبتها حياته، فى هذا الأوان.

ولا ريب أن أبا البشر آدم – عليه السلام – قد نزل إلى الأرض، فى حقبة من الزمان وكانت له لغته التى تفاهم بها مع بنيه وقومه، وتلقى بها الوحى من الله عز وجل، وقد حكى القرآن الكريم جانبا كبيرا من الحوار الذى دار بينه وبين الملائكة وسبب استخلافه فى الأرض، وكذلك حديث الله تعالى معه، والوحى إليه، وكان هذا مثار جدل بين الباحثين فى نشأة اللغة الأولى، ويحكى السيوطى فى المزهر بعض هذه الآراء.

وحول لغة الإنسان الأولى اختلفت الآراء، وكل منها يثبت وجهة نظر خاصة، قامت على تفكير معين، وأدلة ارتآها أصحابها مناسبة لهم، ومؤيدة لقصدهم.

وقد اعتمد كثير من أصحاب هذه الآراء، على نظريات فلسفية، وأدلة غير واقعية، أثبت البحث الحديث عدم نضجها أو صحتها.

وفسرت بعض الآراء نشأة اللغة الأولى بناء على دراسة الظواهر اللغوية، والمؤثرات عليها، فوصلت إلى نتائج تحتمل الصدق.

والذى سبب تشعب الآراء – كما سنرى فى هذا الباب – هو عدم قيام الدليل الأكيد على الطريقة التى نشأت بها لغة الإنسان الأول، فلم يأت الوحى بذلك على لسان نبى، مؤكدا نشأتها بهذا الطريق أو ذاك، ولم تأت كتب تاريخية معتمدة ببيان كيفية النطق الأول للإنسان، ولم ترد تجارب معينة أو تسجيلات صوتية قديمة تثبت ما خفى علينا من أمر هذه اللغة الأولى.

ومن هنا يعد البحث فى نشأة اللغة الأولى (ميتافيزيقيا) – غيبيا – يعتمد على الحدس والتخمين، لكننا لا نرى مانعا من إثارة هذا البحث، – وإن كان لايزال غامضا – فإن البحوث الحديثة تتوالى فى الكشف عن أسرار الكون وخفاياه، وربما كشفت التجارب الحديثة والمعلومات التى تتأكد لنا كل يوم، عن جديد فى هذا البحث، يؤيد الرأى الذى يستحق القبول.

وسنعرض – بناء على ذلك – للآراء التى قيلت فى نشأة اللغة الإنسانية الأولى، قديما وحديثا ونناقشها – كما نرى – على ضوء ما تتيحه المناقشات العلمية المبنية على الحقائق، والأدلة الصحيحة، بعيدين عن الهوى، والتعصب ضد أى منها.

وبجلاء الحقائق للعيان يبدو ما نميل إليه من رأى تدعمه البراهين والحجج السليمة.

* * *

مذاهب العلماء فى نشأة اللغة

للعلماء فيها مذاهب، أهمها:

المذهب التوقيفى:

يرى جماعة من الباحثين، أن اللغة وحى من عند الله، والقائلون بهذا الرأى من الفلاسفة، واللغويين قديما وحديثا، فمن الفلاسفة (هيراكليت)[1] وأبو الحسن الأشعرى ودبونالد، وقد نسب هذا الرأى لأفلاطون، ومن اللغويين أحمد ابن فارس وأبو على الفارسى.

وقد فسر هذا الرأى بالأوجه التالية:

(أ) أن الله تعالى لقن آدم عليه السلام، أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات التى وجدت إلى الآن، والتى ستوجد إلى قيام الساعة، كالعربية، والإنجليزية، والفارسية وغيرها.

(ب) أن الله تعالى علم آدم أسماء الكائنات من حوله، من دابة، وأرض، وسهل وجبل، وأشباه ذلك.

(جـ) أن الله تعالى علمه كيفية تقطيع الأصوات، وتكوين الكلمات، فى جميع اللغات.

(د) أن الله تعالى علمه من اللغات ما احتاج إليه فى زمانه.

ثم إن أولاده لما كثروا تفرقوا فى الأرض، فتكلم كل منهم بلغة من تلك اللغات ونسى ما عداها.

أدلة هذا المذهب:

البرهان على أية قضية من القضايا إما عقلى، أو نقلى، وقد زاد العلم الحديث البحث التجريبى، والأدلة التى ساقها أرباب هذا الرأى تكاد تكون نقلية، وإن كان بعضها قد عرض على أنه دليل عقلى وسنعرض لكلا النوعين:

(أ) الأدلة النقلية:

للمسلمين أدلة اقتبسوها من القرآن الكريم، و لغيرهم أدلة مقتبسة من التوراة.

---

(١) فيلسوف يونانى ولد عام ٥٧٦ وتوفى ٤٨٠ ق.م.

فالآيات القرآنية التى اعتمد عليها المسلمون هى:

١- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] فالأسماء كلها معلمة، من عند الله، والاسم: ما كان علامة على مسمى، فدخل فيه كل كلمات اللغة من أسماء وأفعال، وحروف، وفسر النحاة الأسماء فى الآية بما اصطلح عليه عندهم، واكتفى بها دون الأفعال والحروف لما لها من القوة والأولية فى النفس، والرتبة، كما أنه لابد لكل كلام مفيد من الاسم وليس كذلك الأفعال والحروف.

٢- قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[النجم: ٢٣] فقد ذم سبحانه وتعالى عبدة الأصنام على تسميتهم لها دون وحى إلهى، وذلك يقتضى كون غيرها من الأسماء توقيفيا.

٣- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[الروم: ٢٢] فالمراد بالألسنة: اللغات، والألسنة اللحمانية غير مراده، لعدم اختلافها، ولأن بدائع الصنع فى غيرها أكثر.

واعتمد غير المسلمين من الفرنجة، على ما ورد فى سفر التكوين الإصحاح الثانى الفقرتين ١٩، ٢٠ «والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول، وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء، لجميع الحيوانات المستأنسة، ولطيور السماء، ودواب الحقول».

الرد على هذه الأدلة:

١- الآية الأولى لا تصلح دليلا لهم، إلا إذا كانت (علَّم) بمعنى (لقَّن ووقَّف) و(الأسماء) بمعنى (الألفاظ) ونحن نقول لهم: إن هذا التفسير لا يتعين، لجواز أن يكون (علَّم) بمعنى (أقدر) و(الأسماء) بمعنى (صفات الأشياء ونعوتها وخواصها) وإذا كان هذا التفسير محتملا - مع أنه فى رأينا أقوى من الأول - سقط الاستدلال بهذه الآية، لأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال، كما يقول علماء المنطق.

٢- الآية الثانية، ليست ذما لهم، لاختراعهم أسماء لبعض الأصنام بل لعبادتهم لها، واعتقاد أنها آلهة، من دون الله، وقد سماها الله بتلك الأسماء

فقال ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[نوح: ٢٣] ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ﴾[النجم: ١٩ - ٢٠].

٣- الآية الثالثة، لا يتعين أن يكون المراد باختلاف الألسنة اختلاف اللغات، فلم لا يكون المراد اختلاف الألسنة اللحمانية نفسها، أو اختلاف مخارج الحروف، أو نغماتها، وأصواتها، لدى الشعوب والأفراد..؟ فلا تصلح الآية دليلا لهم.

٤- أما ما ورد فى سفر التكوين من النص السابق فلا يدل على شيء مما يقول به أصحاب تلك النظرية بل هو دليل عليهم فآدم هو الواضع للأسماء كما هو صريح النص.

(ب) الأدلة العقلية:

١- إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم (أى لهجة قريش) والاستشهاد بأشعارهم، و لو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا، لم يكن أولئك فى الاحتجاج بهم بأولى منا فى الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق.

٢- أن علماءنا الأوائل أدركوا أن اللغة أمر توقيفى، لا يجوز لأحد أن يزيد فيه من عنده، «فلقد بلغنا عن أبى الأسود الدؤلى أن امرأ كلمه ببعض ما أنكره أبو الأسود، فسأله أبو الأسود عنه، فقال: هذه لغة لم تبلغك فقال له يا ابن أخى، إنه لا خير لك فيما لم يبلغنى» فعرفه بلطف أن الذى تكلم به مختلق.

٣- لم يبلغنا أن قوما من العرب، فى زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء، مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم، وقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر فى العلوم الشريفة، ما لا خفاء فيه، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدمهم.

٤- لو كانت اللغات اصطلاحية، لا حتيج فى التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة يعود إليها الكلام، ويلزم إما الدور أو التسلسل، فى الأوضاع وهو محال، فلابد من الانتهاء إلى التوقيف.

٥- الكلام أجل من أن يبدعه الإنسان، وكيف يبدعه، وهو إنما يفكر بألفاظ متخيلة، يناجى بها نفسه فالفكرة متوقفة على الكلام، وإذا كان الطفل لا يفكر إلا بعد أن يكلمه أبواه، فكذلك الإنسان الأول لا يفكر إلا بعد أن يكلمه الله.

فاللغة – بما فيها من قوة بيان، وروعة سحر، وحسن نظام – تدل على أنها من صنع الإله، لا من صنع الإنسان، وهذا ما أشار إليه ابن جنى بقوله « واعلم – فيما بعد – أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث، عن هذا الموضع، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى مختلفة جهات التغول على فكرى، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة ما يملك علىَّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر.. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله عز وجل، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه، وأنها وحى »[1].

الرد على هذه الأدلة:

١– أجيب عن الدليل الأول، بأن الاحتجاج يختص باللهجة القرشية، الموحدة التى هى عصب القومية العربية، ولا صلة لهذا بنشأة اللغة الإنسانية.

٢– وعن الثانى والثالث، بأن الواقع بخلاف ذلك، فألفاظ اللغة العربية – كغيرها من اللغات الأخرى – دائمة التغيير، فألفاظ تموت وأخرى تولد، وثالثة تتجدد فى صيغها، ومعانيها، كلما مرت عليها، عوامل الحياة والتطور.

٣– وبعد الإسلام، ماتت ألفاظ، وتراكيب، وعادت أخرى إلى الحياة وتطورت بعض التراكيب، والمفردات، ولايزال التجديد اللغوى مواكبا لركب الحضارة والصناعة، مما يدل على أن اللغات من صنع الإنسان، لأن الموحى به لا يتغير، ولا يتبدل.

٤– وعن الرابع، بأن الاصطلاح لا يستدعى تقدم اصطلاح آخر، بدليل تعليم الوالدين للطفل، دون سابقة اصطلاح ثمة.

٥– وعن الخامس، بأن الفكرة تتوقف على الكلام النفسى، لا الكلام الصوتى الذى نتحدث عنه، ونحن نتكلم عن اللغة الإنسانية الأولى، وهى – بالطبع – لم تكن تبلغ درجة الإبداع التى وصل إليها الكلام فى العصور المتأخرة بعد أن تطورت اللغات وارتقت ذروتها[2].

---

(١) الخصائص: ١/٤٧.

(٢) انظر: الصاحبى (باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح) ص٦ – ٩، والمزهر ١/١٧ – ٢٦.

المذهب الوضعى:

ذهب فريق من الباحثين إلى أن الإنسان، هو الذى وضع ألفاظ اللغة الإنسانية بجميع فروعها التى يتكلم بها الناس، فى شتى بقاع الأرض، من عربية، وعبرية، وفارسية، وانجليزية، وفرنسية، وغيرها من فروع اللغات، فهو مخترعها، وصانعها، بفكره الخاص وحسب حاجته فى هذه الحياة.

وقد قال بذلك فلاسفة ولغويون، فمن الفلاسفة أبو هاشم الجبائى من المتكلمين العرب، ومن الغربيين، قديما، ديمو كريت، وحديثا، آدم سميث، وريد، ودجلد ستيورات، كما ذهب إليه عدد كبير من علماء فقه اللغة العربية كالفارسى.

وطريقة المواضعة - كما تصورها أصحابها، وكما حكاها ابن جنى - هى «كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة، فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل و احد منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز من غيره ويغنى بذكره عن إحضاره، ... بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره، كالفانى، وحال اجتماع الضدين، على المحل الواحد، وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة، والبعد مجراه، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم، فأومئوا إليه وقالوا إنسان إنسان، فأى وقت سمع هذا اللفظ، علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد. عين. رأس. قدم، أو نحو ذلك، فمتى سمعت هذه اللفظة، من هذا عرف معنيها، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف.

ثم لك من بعد ذلك، أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الذى اسمه إنسان، فليجعل مكانه مرد، والذى اسمه رأس فليجعل مكانه: سر وعلى هذا بقية الكلام، وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنتقل ويولد منها لغات كثيرة، من الرومية، والزنجية، وغيرهما»[1].

ولهؤلاء أدلة نقلية وعقلية:

١- من أدلتهم النقلية:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] وهذا يقتضى تقدم اللغة على البعثة.

---

(١) الخصائص ١/٤٤، ٥٤.

٢- ومن أدلتهم العقلية:

(أ) الألفاظ ومدلولاتها، تتغير، فما يسمى باسم يمكن أن يطلق عليه اسم آخر، وينقل اسمه الأول إلى غيره، فما يسمى (حديدا) يمكن أن يوضع له اسم آخر، ويجعل اسم (الحديد) لغيره وهكذا، فاللغة لا تحدد معانى الألفاظ بطريقة عقلية، أو منطقية وذلك نقص فيها فلا يليق بالله الكامل أن يأتى الأمور التى تتصف بالنقص.

(ب) كون اللغة من عند الله، يقتضى إيماء، وإشارة، وذلك محال بالنسبة له تعالى، لأنه يحتاج إلى جارحة، وهو منزه عنها.

وبهذا يثبتون أن اللغة من عند البشر، ومن مواضعتهم، واصطلاحهم.

الرد على أدلتهم:

١- أجيب عن الآية الكريمة، بأنها ليست نصا، فى تقدم اللغة، بطريق الاصطلاح على البعثة، لجواز أن تكون اللغة موجودة قبل الرسول، بطرق أخرى، غير المواضعة، كالوحى أو محاكاة الأصوات، ولجواز أن يكون آدم قد أوحى الله إليه باللغة مع الرسالة، فعلمها لقومه، ثم بلغهم رسالته، فتكون اللغة متقدمة على الرسالة بهذا المعنى.

٢- كون الألفاظ، ومدلولاتها، لا تحددها قواعد منطقية أو عقلية وذلك نقص فيها، فلا تليق بجلال المولى عز وجل أن يكون واضعا لها، أو موحيا بها، ينفى كونها من عند الله، ولكن لا يثبت القول بوضع البشر لها، فمن الجائز كونها ناشئة عن محاكاة الأصوات أو وسائل أخرى، اجتماعية سنتحدث عنها.

٣- القول بمواضعة البشر، بناء على استحالة الإشارة، والإيماء من الله، لأنه ليست له جارحة، يرد عليه بما رد على سابقه، على أن ابن جنى رد هذا الادعاء بأن ذلك يصح من الله وإن لم تكن له جارحة، بأن يصدر الصوت من خشبة، أو غيرها، مشيرا إلى ما يريد تعليمه، ووضع أسماء له، فتقوم الخشبة فى هذا الإيماء وهذه الإشارة، مقام جارحة ابن آدم.

٤- كيف كان هؤلاء الحكماء يتفاهمون عندما اجتمعوا لوضع اللغات؟ إذ لابد لهم من لغة صوتية يتفاهمون بها، وهذه هى موضوع البحث، وإلا فإذا لم تكن لهم لغة، فكيف كانوا يتفاهمون؟ وكيف استطاعوا أن يضعوا كل اللغات،

كاملة، مع أن العقل يأباه، وبخاصة فى تلك الأزمان، الأولى التى لم يكن الإنسان فيها، على درجة من التقدم والمعرفة، تسمح له بذلك.

٥- هذه النظرية تتعارض مع النظم الاجتماعية، للشعوب المختلفة، على أنه من المستبعد وضع الألفاظ للأمور المعنوية، التى تتعذر الإشارة إلى مدلولاتها.

المذهب الاجتماعى:

تفترض هذه النظرية، أن الإنسان الأول، قد التقى مع إخوانه من البشر فى أعمال تحتاج إلى جهد كبير يبذل منهم متكاتفين على النظام الذى نشاهده فى عصرنا الحديث لجماعة من العمال يقومون بعمل شاق ويصدرون أصواتا تعينهم على عملهم مثل (هيلا هوب) (هب ليصا) ونحو ذلك.

فالإنسان الأول خفف عن نفسه عبء العمل، فى مثل هذه الظروف بتنفس عميق، أثر فى أوتاره الصوتية تأثيرا نجم عنه هزات (ذبذبات) صوتية لم يكن لها معنى - فى أول الأمر - ثم صار لها معنى - بعد ارتباطها بالعمل - وأصبحت وسيلة للتفاهم من بعد.

وقد اعترض على هذه النظرية بأنه يترتب عليها أن الإنسان لم ينطق باللغة.،منذ وجوده، بل مر عليه زمن طويل قبل أن ينبس ببنت شفة، وأنه نطق بالأصوات المعبرة الواضحة، دفعة واحدة عندما التقى بغيره.

وليس من المعقول أن ينطق الإنسان بأصوات متكاملة، لم تتدرب عليها أعضاؤه الكلامية، من قبل، بل الذى يتمشى مع المنطق أن يبدأ بأصوات مبهمة، أو يقل وضوحها ثم تنمو وتتطور، شيئا فشيئا، حتى تصل إلى درجة الوضوح الكاملة على نحو ما نشاهده الآن تبعا لتدرج تلك الأعضاء النطقية فى النمو والاكتمال.

مذهب الغريزة الكلامية:

يصور هذا المذهب أن الإنسان - كما هو معروف - قد ركب فى طبيعته غرائز كثيرة مثل (غريزة التعبير الطبيعى عن الانفعال) وتحدث ردود فعل عنده نتيجة لنوع الانفعال الذى يعتريه، فالغضب - مثلا - أوالحزن أوالخوف يؤدى إلى حدوث انقباض فى أسارير الوجه، أو البكاء، والسرور - مثلا - يؤدى إلى انبساطها، أو الضحك أو نحو ذلك، مما يناسب هذا اللون من التأثر الطبيعى،

للإنسان عند وجود مسبب له فى أحوال الإنسان المختلفة، وحاجاته المتعددة، ومواقف الآخرين منه وهذه الغرائز متحدة عند جميع البشر، وما ينجم عنها.

وتبعا لذلك فالإنسان الأول، كان مزودا بغريزة خاصة تعرف باسم (الغريزة الكلامية) عبر بها عن أغراضة المختلفة، محسوسة أو معنوية، وتلك الغريزة متحدة النوع عند جميع الأفراد، ولذلك كانت اللغة الإنسانية الأولى فى تعبيراتها متشابهة لديهم واستمر الإنسان على ذلك حتى نشأت اللغة الأولى ثم بعد أن لم يعودوا فى حاجة إلى تلك الغريزة انمحت، ونشأ بعدها الكلام الصناعى.

وقد قال بهذا الرأى جماعة من الفلاسفة المحدثين منهم: العلامة الألمانى مكس مولر، والعلامة الفرنسى رينان.

دليل هؤلاء:

١- أن الباحثين اكتشفوا أن للغة الهندية الأوروبية خمسمائة أصل.

٢- تدل تلك الأصول على معان كلية.

٣- لا صلة بين تلك الأصول الخمسمائة. ومعانيها.

وبناء على ذلك:

(أ) يبطل مذهب التوقيف لأن التوقيف اللغوى يتطلب كمال اللغة فتشتمل على المعانى الكلية، كما تشتمل على المعانى الجزئية، وهذه الأصول تدل على الأولى فقط، فلا توقيف.

(ب) يبطل مذهب المواضعة، لأن المتواضعين، لابد لهم من وسيلة يتفاهمون بها، فإذا قلنا: إنها الإشارة فإن هذه الأصول تتعارض معها، لأنه لا يمكن الإشارة إلى معان كلية، وإنما يشار إلى المحسوسات وإذا قلنا: إنها كانت لغة صوتية فليس بمعقول، لأن المفروض أنهم اجتمعوا ليضعوا هذه اللغة، لأنها لم تكن موجودة من قبل.

(جـ) يبطل مذهب المحاكاة للأصوات الطبيعية، وأصوات الحيوان، الذى سنتكلم عنه، بناء على عدم وجود صلة بين الألفاظ التى هى الأصول المذكورة وبين معانيها، وذلك يناقض تلك النظرية التى تنبنى - أساسا - على وجود هذه العلاقة.

وإذا بطلت تلك المذاهب لم يبق إلا أن يكون الكلام قد نشأ عن الغريزة الكلامية.

وهذا المذهب بنى على أساس غير سديد :

(أ) لا نسلم لهم بأن تلك الأصول الخمسمائة، تمثل اللغة الإنسانية، الأولى إذ لا دليل على ذلك وكل ما تثبته أنها أصول للغة الهندية الأوروبية (السنسكريتية) ولسنا نبحث عنها، وإنما نبحث عن اللغة الأولى، التى تعد أصلا لجميع اللغات وهى لغة الإنسان الأول.

(ب) لا يمكن أن تمثل تلك الأصول الخمسمائة، اللغة الإنسانية الأولى لأنها تدل على معان كلية، وإدراك المعانى الكلية يحتاج إلى عقلية راقية، لم يصل إليها الإنسان إلا بعد أن قطع طريقا طويلا، من التقدم، فقد كان لا يعبر إلا عن المحسوسات، ثم تدرج منها إلى المعقولات، على حد ما نشاهده فى الأمم البدائية الموجودة الآن.

فقد أجمع علماء (الأنتوجرافيا) الذين قاموا بدراسة هذه الأمم، بأمريكا واستراليا، وأفريقيا، وغيرها على ضعف عقلياتها بهذا الصدد، وعجزها عن إدراك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها، ففى لغة الهنود الحمر – مثلا – يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء، وهكذا، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم.

وفى لغة الهورونيين[1]، يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ولكن لا يوجد للفعل نفسه، لفظ يدل عليه فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز، ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقة باللحم وثالث فى حالة تعلقه بالزبد، ورابع فى حالة تعلقه بالموز، وهكذا، ولكن لايوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل، على العموم، أو الأكل فى زمان ما[2].

ولما كانت تلك الأصول، تدل على معان كلية، فلا يعقل أن تكون أصلا للغة الإنسانية الأولى، وإنما هى مرحلة متأخرة، للغة حديثة، مرت بها أزمان متطاولة، فى الحضارة والتقدم، على أن بعض العلماء ينفى أن تكون أصلا لأية لغة إنسانية، ويعدها أصولا افتراضية بحتة.

(جـ) عدم ارتباط هذه الأصول بمعانيها لا ينفى نظرية المحاكاة فمن الجائز

---

(١) من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية. (٢) علم اللغة: د. وافى ص٩٤.

أنها كانت حال وضعها الأول، مرتبطة بمعانيها ثم خفى هذا الارتباط فيما بعد، نتيجة تغير البيئات، والأزمان، وعوامل الحياة الاجتماعية، والنفسية، وغيرها.

(د) هذه الغريزة الكلامية غامضة، لا ندرى كنهها، ولا كيفية انتقال الكلام، منها إلى طريقته الصناعية، ولماذا اختص بها الإنسان الأول دون من أتى بعده من بنى آدم إلى الآن؟

المذهب الطبيعى:

فسر بعض المفكرين، نشأة اللغة، على أنها نتاج طبيعى، صدر عن انفعالات الإنسان نفسه، أو المؤثرات الخارجية عليه، أو محاكاة أصوات الحيوان، والأشياء الموجودة بالكون، وقد اتخذت تلك الاتجاهات صورة نظريات مستقلة فى الحديث عن مبدأ اللغة، ولكن الناظر فى جوهرها يتبين دورانها حول معنى واحد، هو طبيعة الكائنات، التى صدر عنها، من انفعالات أو حوادث خارجية أثرت فى الإنسان، أو أصوات حيوانية، أو غيرها حاكاها الإنسان الأول، ونحن – على الرغم من اندماجها تحت (الاتجاه الطبيعى العام) – سنشرح كل جانب منها على حدة.

(أ) صدور اللغة عن أصوات الانفعالات الإنسانية:

يذهب فريق من العلماء إلى أن اللغة الإنسانية نشأت عن أصوات الانفعالات الطبيعية التى صدرت عن الإنسان فى حالات الفرح، أو الحزن، أوالدهشة، أو التعب أو الألم، أو نحو ذلك.

فالإنسان الأول نطق باللغة فى صورتها الأولى على هيئة انفعالات كتلك التى نشاهدها عند الشعوب مثل قول العربى (أف) حالة الضجر، أو (أوه أو آه) حالة التعب أو (أه) حالة الدهشة، وقول الألمانى au والفرنسى (ahi) والإنجليزى (oh) أو (ow)عند الدهشة.

ثم تطورت تلك الأصوات وانتقلت، إلى معان اقتضتها الحاجات الإنسانية، ثم ما لبثت أن تفرعت، وتعددت صورها، حتى وصلت برقى أعضاء النطق الإنسانى إلى ما وصلت إليه بوجود اللغات المعروفة.

وقد فسر نشأة اللغة عن الانفعالات بأن (الشعور بالاحتقار أو الاشمئزاز –

مثلا – يصحبه – عادة – ميل إلى النفخ، من الفم، أو فتحات الأنف، وهذا يؤدى إلى إبراز أصوات خاصة مثل (بوه) pooh أو (بش) pish وفزع الإنسان أو إصابته بدهشة مفاجئة، يصاحبه فى الحال، ميل إلى بذل جهد، طويل لفتح الفم باتساع، وذلك لسحب شهيق سريع، طويل، وعندما يتبعه زفير كامل فإن الفم، يقفل إلى حد ما، وتمتط الشفاه، وصورة الفم بهذا الشكل – إذا بدل الصوت – تنتج صوتا قد يعبر عنه بصوت (أو) (o) وهذا الصوت ونحوه قد يتطور على حسب الموقف إلى (أوه) oh أو (آه) ah أو آخ . . إلخ[1] .

ويبعد أن تكون تلك الأصوات أساسا للغات البشرية:

١– هذه الأصوات لا تحدث إلا عند العجز عن الكلام، وهى بصفاتها التى تخرج عليها، وباشتمالها على عناصر صوتية معينة، مثل أصوات اللين المهموسة[2] تبعد كثيرا عن الكلام المتعارف عليه، مما يجعل عدها أساسا له أمرا صعبا .

٢– هى أصوات فجائية، اضطرارية، فى حين أن الكلام يصدر عن إرادة الإنسان .

٣– هذه الأصوات مختلفة، لدى الشعوب، وقد ذكرنا فيما سبق كيفية التعبير عن الدهشة عند العربى، والألمانى، والفرنسى والإنجليزى، وهذا يقتضى تعدد اللغات الأولى للإنسان، لا أن تكون لغة واحدة كما هو المنطق المعقول .

٤– لم يقم دليل واقعى أو تاريخى، على أن اللغة الإنسانية نشأت من تلك الأصوات الانفعالية كما يقول سابير .

(ب) صدور اللغة عن المؤثرات الخارجية :

يرجع بعض العلماء منشأ اللغة، إلى الحوادث الكونية، التى تحيط بالإنسان فكل منها، يقتضى منه، تصرفا، خاصا، وكل تصرف، يحتاج إلى ألفاظ، تعبر عنه، والحوادث متعددة، وتختلف فى طبيعتها، وأشكالها،وأوقات حدوثها، مما يقتضى هو الآخر، اختلاف الألفاظ التى تصدر عن الإنسان فى مناسباتها المختلفة،

---

(١) قضايا لغوية ١١٨ ، ١١٩ و(أخ) كلمة تقال عند التأوه وهى محدثة أو مولدة، انظر المزهر ١ / ٣٠٥ .

(٢) دلالة الألفاظ د . أنيس ٢٠ .

وقد قاسوا ذلك على الأشياء المحسوسة، كاصطدام الأجسام فالطرق على الحديد، أو النحاس، أو الخشب، ينجم عنه أصوات مختلفة، تبعا لنوع الرنين المعين الذى يصاحب طرق كل من تلك الأجسام المختلفة فى طبيعتها، وهكذا فلكل حادثة رنين خاص، ووقع معين على الإنسان، يختلف عن غيرها من الأحداث تبعا لاختلاف طبيعة تلك الأحداث، وظروفها فينشأ عن ذلك تعدد الألفاظ والأصوات المركبة منها، لتكون مشابهة لتلك الحوادث، التى صدرت عنها.

فاللغة نشأت عن ذلك الرنين الذى صاحب الأحداث، التى مرت بالإنسان على اختلاف أنواعها.

وهذا الرأى غير مقبول، لغموضه، ونزعته الفلسفية، التى لا نعرف منها، كيف تم وضع الألفاظ للأحداث وكيف تعددت، وتطورت حتى وصلت إلى النمو اللغوى، الذى نراه.

(جـ) صدور اللغة عن محاكاة الأصوات:

ذهب إلى هذا الرأى كثير من فلاسفة العصور القديمة، ومن مؤلفى العرب فى العصور الوسطى، ومنهم الخليل بن أحمد، وفيلسوف العربية، ابن جنى، ومعظم المحدثين من علماء اللغة، وعلى رأسهم العلامة وتنى وسبنسر، وأحمد فارس الشدياق.

وملخص هذا الرأى «أن كل المفردات، قد خرجت من صيحة تشبه نباح الكلب، أو من سلسلة من الأصوات، توحى بتمثيل الأشياء، عن طريق المحاكاة»[1]. كما يقول الأستاذ فندريس، أو كما يقول عالمنا ابن جنى «إن أصل اللغات كلها، إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوى الريح وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبى، ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد»[2].

وقد حاكى الإنسان أصوات الأشياء، والحيوان، ليدل بالصوت على مصدره أو ما يتصل به، مما يريد الإبانة عنه، ثم مكنته قدراته التى منحه الله إياها، من تقطيع الأصوات، وتكوين الكلمات بعد ذلك، وقد كانت لغته - فى أول الأمر

---

(١) اللغة: ٤١.　　　(٢) الخصائص ١/ ٤٦، ٤٧.

– قليلة الألفاظ، والتنوع، وشبيهة بأصوات مصادرها الطبيعية، ثم ارتقت برقى الإنسان، وتعددت أنواع الدلالة فيها، حتى انتقلت من طور المحسوسات، إلى طور المعقولات، وأصبحت وافية بكل ما يحتاجه وكانت – فى أول أمرها – تستعين بالإشارة ثم استغنت عنها بعد رقيها.

وقد اعتمد القائلون بهذا الرأى، على ملاحظات لغوية، تتعلق بالطفل والأمم البدائية:

(أ) فالطفل فى المرحلة التى تسبق الكلام، يحاكى أصوات الأشياء، من حوله ليعبر عن مصدرها، أو عما يريده، بالنسبة لها، فهو يسمى الدجاجة (كاكا) والشاة (ماما) والقط (نونو) وذكر الجاحظ فى كتابه (الحيوان) أن طفلا سئل عن اسم أبيه وكان يسمى كلبا، فقال: (وو وو) والطفل فى تلك المرحلة يستخدم الإشارات المساعدة، ثم يستغنى عنها، شيئا فشيئا بتعلمه اللغة من أبويه، حتى يتقنها، وما الإنسان إلا طفل تاريخى.

(ب) ثبت من دراسة أحوال الأمم البدائية، أن لغاتها، تشبه فى خصائصها ما نحن بصدده، من خصائص اللغة الإنسانية الأولى، ففى هذه اللغات، تكثر المفردات، التى تشبه أصواتها، أصوات ما تدل عليه، كما أن أربابها يستعملون الإشارات اليدوية، والجسمية، أدوات مساعدة فى فهم المقصود وإفهامه للآخرين.

فمثلا «سكان استراليا وأواسط أمريكا الجنوبية يضطرون لنقص لغاتهم عن الوفاء بأغراضهم، لاستخدام الإشارات، فنراهم إذا تكلموا صوتوا، وأشاروا بأيديهم، وأرجلهم، وأعينهم[1]، بل إن بعضهم – كالحيوان الأعجم – يستخدم الإشارات فقط لغة له[2].

(جـ) أول ما يبدو فى كلام الأطفال، وما نلاحظه فى البيئات البدائية، هو التعبير عن المحسوسات، ولا يوجد ما يدل من الألفاظ، على المعانى إلا بعد فترة طويلة، من حياة الطفل، وتقدم تلك الأمم ورقيها، ومن هنا كانت حياة الطفل، والأمم البدائية مماثلة لحياة الإنسان الأول، وما يصدق على هذه يصدق على تلك، خطوة بخطوة، وتطورا بتطور.

---

(١) الفلسفة اللغوية: ١٢.

(٢) المدخل إلى دراسة النحو العربى ١٣.

وقد وجهت إلى تلك الوجهة نقود:

١- تهكم (رينان) الفرنسى، من النظرية قائلا: «ليس من المعقول أو المفهوم، أن الإنسان، وهو أرقى المخلوقات، يقلد أصوات مخلوقات أدنى منه، وأحط[١].

٢- تقليد الأصوات - على النحو السابق - يجعل للصوت معنى فى فم المقلد، وفى عقل من يسمعه، وقد كان بلا معنى حال صدوره من الحيوان وغيره.

٣- يسخر (مكس مولر) من النظرية بقوله: «إن نظرية المحاكاة إنما تصلح إذا كنا نتعامل، مع الحيوانات، أو الطيور»[٢].

٤- يعترض (سابير) على هذه النظرية، بأنه لا يؤيدها دليل تاريخى ويقول: إن كلمات مثل: ماء ونهق، لم تنشأ عن الطبيعة، ولكنها من صنع العقل وخطرات الخيال الإنسانى[٣].

٥- ويعد الدكتور كمال بشر تلك النظرية بعيدة - أيضا - لأن لغات بعض الشعوب البدائية، تكاد تخلو خلوا تاما، من مثل هذه الكلمات[٤].

٦- والدكتور محمد المبارك يرى أن تلك النظرية (لا تكاد تثبت للحجة، والدليل ولا تصدق الا فى القليل النادر، من ألفاظ كل لغة، ولو صحت هذه النظرية، لما تعددت اللغات، ولتماثلت، أو تشابهت على الأقل، فإن أصوات الطبيعة واحدة)[٥].

ولكن الرأى السائد لدى علماء اللغة، أن تلك النظرية مقبولة، من الوجهة العلمية، والاجتماعية، فهى تتفق مع سنة النشوء، والارتقاء، التى تخضع لها الكائنات، وظواهر الطبيعة، واللغة كائن اجتماعى، ولم يقم أى دليل يقينى على خطئها، وتتفق وحال الطفل والأمم البدائية، على ما سبق بيانه.

أما الاعتراضات السابقة، فقد أجيب عنها، بما أزال الشبه، وأكد صواب النظرية، والأخذ بها على أنها أرجح الأقوال:

---

(١) دلالة الألفاظ د. أنيس ١٨، وفقه اللغة د. نجا ٢١.
(٢) فقه اللغة د. نجا ٢١ وقضايا لغوية ١٢١.
(٣) فقه اللغة للمبارك ١٦١.
(٤) قضايا لغوية ١٢٢.
(٥) فقه اللغة للمبارك ١٦٠، ١٦١.

١- ليس بمعيب على الإنسان، أن يقلد الحيوان، فيما يفيد، وطالما قلده فى أشياء كثيرة، وقد حاول - قديما أن يطير، بنفسه، ولما عجز تمكن من الطيران عن طريق اختراع الطائرات ولا عيب في ذلك، وقد قلد ابن آدم الغراب في دفن أخيه حين قتله ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[المائدة: ٣١].

والإنسان لم يكن فى تلك المرحلة، يقتصر على محكاة الحيوان بل كان يحاكى أصوات الطبيعة والأشياء الأخرى، والأصوات التى تصدر عن بنى جنسه.

٢- مهارة الإنسان تظهر فى أنه انتقل بالأصوات المبهمة إلى الدلالة على المعانى وهذه مرحلة أرقى اختص بها الإنسان فهو لم يستعمل الصوت كما يخرج من فم الحيوان، دون دلالة على معنى حتى يعد عيبا، بل عبر به عن مصدره، أو عما يتصل به، فعد ذلك أمرا دقيقا، انفرد به الإنسان.

٣- إن الإنسان تعامل عن طريق المحاكاة مع بنى جنسه، لا مع الطيور والحيوانات فالزئير للأسد، والصهيل للفرس، وغاق للغراب، وهيقم للبحر، وغير ذلك من أسماء الأصوات التى تعرف فى النحو العربى، وورد بعضها فى أشعار العرب، للدلالة على ما يراد منها، بما يعود بالفائدة على الإنسان.

٤- عدم وجود الدليل التاريخى، لا ينفى هذا الرأى، والعذر واضح، فى أن البحث يتعلق بنشأة الإنسان، الأول، الذى لم يكن يعرف التسجيل أو التدوين، فى تلك العهود السحيقة.

٥- وكون بعض الشعوب البدائية، تخلو لغاتها من تلك الألفاظ لا يدل على نفى النظرية، أيضا فإن تلك الشعوب قد مرت بأزمان متطاولة، ولعل لغاتها قد تحولت، وتطورت، وانتقلت ألفاظها إلى معان غير الموضوعة لها، فى أصل نشأتها، مما أبعد تلك الصلة بين الألفاظ، ومعانيها.

وبذلك - أيضا - نفسر قلة هذا النوع من الكلمات، فى بعض اللغات الإنسانية الموجودة الآن، كما أن الدكتور المبارك يعلم أنه لا يمكن اتحاد اللغات البشرية، لأن العوامل الجغرافية، والاجتماعية تحول دون ذلك وقد أثبتت التجارب استحالته.

رأى جسبرسن:

لم تحز كل الآراء، السابقة، فى نشأة اللغة، القبول لدى جسبرسن الدنمركى لأنها تصور الإنسان وقد ظل بلا كلام صامتا فترة طويلة، من الزمن، ولذلك حاول أن يجعل لنفسه رأيا آخر يجعل اللغة نشأت مع الإنسان، منذ بدء حياته الأرضية واختلاطه بغيره، فصورها على الوجه التالى:

١- نشأت اللغة الأولى فى صورة لعب، وغناء، وحب، علي أن الحب كان له دور كبير فيها، وكانت فى ذلك مشابهة لأصوات الطفل، والحيوان، والطير.

٢- كانت - فى بدئها - ساذجة، لساذاجة المتكلمين بها، وكانت تعبيراتها مبهمة، ومعقدة، ثم تطورت وارتقت، بعد ذلك.

وقد وصل جسبرسن إلى هذا الرأى بعد قيامه ببحوث، لغوية، توصل من خلالها إلى نتائج حصل منها على قوانين عامة للتطور اللغوى، وظواهر اللغات البدائية.

وقد قامت بحوثه، على أسس ثلاثة:

(أ) لغة الطفل.

(ب) لغة الشعوب البدائية.

(جـ) تاريخ اللغات الإنسانية.

(أ) لغة الطفل:

لاحظ علماء الأحياء التشابه بين أطوار الجنين فى بطن أمه وأطوار الجنس البشرى، على مدى السنين الطويلة، ومن هنا استنتج أن لغة الإنسان الأول توافق لغة الطفل فى أطوارها.

ولكننا نقول: إن المرحلة التى تتشابه فيها حياة الطفل مع الإنسان الأول، هى مرحلة ما قبل الإدراك، لأن الطفل بعد أن يمكنه إدراك ما حوله، يتلقى اللغة عن المحيطين، به من أفراد أسرته، وغيرهم، والإنسان الأول لم يجد من يحاكيه، كالطفل، وبهذا نلاحظ أن المقارنة غير مقبولة.

(ب) لغة الأمم البدائية:

وجد جسبرسن، شبها قويا، بين الأمم البدائية، والإنسان الأول، فى حياتهما العامة، والمؤثرات عليها، ولذلك اتجه إلى أنه يمكن إدراك الملامح العامة للغة الإنسانية الأولى استنتاجا من القياس على لغات تلك الأمم البدائية.

وقد وصل جسبرسن من خلال دراسته إلى الظواهر اللغوية الآتية:

١- ظواهر صوتية:

(أ) كانت تشيع فى اللغات البدائية الأصوات الصعبة، ولذلك نرى التطور اللغوى، يؤدى إلى الخفة، والسهولة، مثل (سدأ) فى العامية المصرية، بدلا من (صدق) فى العربية الفصحى، فالسين أخف من الصاد والهمزة أخف من القاف.

(ب) اعتمدت اللغات البدائية، على النبر والتنغيم، فالكلمة الواحدة، يمكن أن تدل على شيئين، باختلاف موقع النبر، مثل: (محمد جه) فى العامية يكون استفهاما أو إخبارا، والكلمة الانجليزية Subject تكون اسما ومعناها (موضوع) حين تكون النبرة على المقطع الأول، وتكون فعلا، ومعناها (يخضع) حين تكون النبرة على المقطع الثانى.

(جـ) مالت اللغات البدائية إلى الغناء.

(د) كثرت الكلمات الطويلة، فى اللغات البدائية، وهى تختفى من كثير من اللغات المتحضرة.

٢- ظواهر نحوية:

توصل جسبرسن، من دراساته، إلى أن اللغات البدائية، ليست لها قواعد مطردة تسير وفقها، فى نحوها وصرفها، تبعا لأن العقل الإنسانى لم يكتمل له وعيه، فى تلك الحقبة، من التاريخ، ثم بمرور الزمن بدأ يدرك، ويزداد إدراكه، فتخلصت لغته، من العناصر الشاذة، واتجهت نحو قواعد، مطردة دقيقة.

٣- ظواهر فى الكلمات:

لاحظ جسبرسن، أن كلمات اللغات البدائية، تعبر عن المحسوسات، كثيرا لتأخر المتكلمين بها، فكريا، واجتماعيا، إذ إن التعبير عن المعنويات والأمور الكلية، يحتاج إلى عقلية، راجحة، ورقى إنسانى.

والواقع أن لغات الشعوب البدائية، لا يمكن عدها بدائية، لأنها قد مرت عليها سنوات طويلة، وكما يقول الأستاذ فندريس: (لا يمكن استخلاص شيء في هذا الصدد، من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين، رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم، في غالب الأحيان، فهم يتكلمون أحيانا لغات، على درجة من التعقيد، لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيدا ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة، تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة، فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات، تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها)[1].

وبذلك لا يمكن المقارنة، بينها، وبين لغة الإنسان الأول، على وجه اليقين.

(جـ) تاريخ اللغات الإنسانية:

يرى جسبرسن أن يدرس الباحث اللغات الإنسانية في عصورها الحديثة، والعصور السابقة، حتى يصل إلى تاريخها، السحيق موازنا بين خصائصها في تاريخها الطويل، ليستنبط منها قوانين لغوية، لعلها تلقي الضوء على اللغة الإنسانية الأولى، وخصائصها المميزة لها، حتى يمكن التعرف عليها، فلغة كالعربية، أدرسها في العصر الحديث، ثم في العصور السابقة، التركي – العباسي – الأموي – الإسلامي – الجاهلي، مبينا خصائصها في كل عصر، وصلتها بأخواتها الساميات، وهكذا دراسة الإنجليزية، وغيرها.

والواقع أن كل ذلك، لن يصل بالباحث إلى وصف اللغة الأولى على وجه القطع، – كما سبق – إذ إن تلك اللغات، مهما تبالغ في تحديد خصائصها، فإنها قد تطورت ومرت بعصور متفاوتة، أثرت عليها، بما يقطع الشبه الذي يمكن تصوره، بينها، وبين اللغة الأولى، وكل ما يمكن قبوله، هو قرابتها منها... وهيهات.

تعقيب:

وبعد...

فقد تعرضت المذاهب المتعددة السابقة لنقود كثيرة أثبتت فسادها وعدم استقامتها على المنهج العلمي، وبعدها عن الواقع اللغوي، المطابق لحياة الإنسان

---

(١) اللغة ٢٩، ٣٠.

الأول، اللهم إلا الرأى القائل بأن الانسان حاكى الأصوات المسموعة فإنه حظى بتأييد كثير من علماء اللغة، لتدرجه مع سنة النشوء، والارتقاء واتفاقه مع حال الطفل، والأمم البدائية، ومسايرته بذلك، للوجهة العلمية، والاجتماعية.

وحتى هذا الرأى الأخير، تعرض لنقود، أجاب عنها أصحابه، ولكنهم – على الرغم من ذلك – لم يقطعوا بأنه هو الرأى الذى لا رأى بعده، ويعترفون بأنه «لم يقم دليل يقينى على صحته» (١).

ويبدو ذلك من مناقشة الأستاذ فندريس للأدلة المؤيدة له.

أولا – حال الطفل:

المنهج العلمى السليم، يمنع من المقارنة، بين تدرج الطفل اللغوى، ومنشأ اللغة الإنسانية، (لأن الأطفال لا يعلموننا إلا كيف تحصل لغة منظمة، ولا يعطوننا أية فكرة، عما كان عليه الكلام، عند أصل نشوئه، . . . الطفل لا يؤدى إلا ما قيل أمامه، . . . ويقوم بعمل المحاكاة لا الخلق، عمل يخلو من الارتجال خلوا تاما) (٢).

ثانيا – حال الأمم البدائية:

(أ) لا تمثل اللغات البدائية، حال اللغة الإنسانية الأولى، إذ إن تلك اللغات لا تعد بدائية بمعنى الكلمة، فقد مرت بها عصور متوالية تغيرت فيها، وانتقلت إلى حالات أخرى، متعددة بعدت بها عن أصلها، الأول الذى وجدت عليه، ومن ذا الذى يعرف تلك المراحل، والتطورات، وآثارها (فهناك لغات، تنتسب إلى تواريخ، منها القديم، ومنها الأقدم، ونحن نعرف بعض لغاتنا الحديثة، فى صور قديمة، ترجع إلى أكثر من عشرين قرنا، ولكن أقدم اللغات المعروفة (اللغات الأمهات كما تسمى أحيانا)، لا شىء فيها من البدائية، ومهما اختلفت عن لغاتنا الحديثة، فإنها لا تفيدنا علما إلا بالتغيرات التى طرأت على الكلام ولا تدلنا على شىء من كيفية نشوئها، كذلك لا يمكن استخلاص شىء فى هذا الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين، رغم الإسراف فى تسميتهم بهذا الاسم. . إلى آخر هذا النص الذى سقناه آنفا.

---

(١) علم اللغة د. وافى ٩٦.

(٢) اللغة ٣٠: ٣١.

(ب) أما وجود بعض الشعوب البدائية، التى لا تزال – فى العصر الحاضر – تتفاهم بلغة الإشارات، مما جعل أصحاب تلك النظرية، يستدلون بذلك على أن الإنسان الأول، استخدم الإشارات فى تفاهمه أولا، أو مع اللغة الصوتية، كمساعد آلى، لها، فهذا – أيضا – ليس أمرا مؤكدا «فلعل اللغة البصرية» [1] توازى اللغة السمعية، فى قدم العهد، فليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن إحداها متقدمة على الأخرى. . . وغالبية اللغات البصرية المستعملة اليوم، مشتقة من اللغة السمعية. . . وقانون الإشارات البحرية. . . ولغة الإشارات التى يستعملها الصم، والبكم، هى الأخرى منسوخة عن اللغة السمعية [2].

فهذه الاحتمالات، تجعل القول، بنشأة اللغة، عن طريق محاكاة الأصوات أمرا ظنيا، من حيث صحته، واستقامته.

ولكن – مع ذلك – عده علماء اللغة، والباحثون فى نشأتها على جانب كبير من الصحة، (فالباحث، فى هذا الموضوع، يجد بين يديه من المعلومات، اللغوية، والاجتماعية والنفسية، ومن المقارنة بين اللغات الحديثة والقديمة، وأحوال الأمم البدائية، وغيرها، ما يستطيع الاستفادة منه، لبحث نشوء اللغات)[3].

أى الأجناس أسبق الأسماء أو الأفعال أو الحروف؟

مرت بنا مذاهب الباحثين فى نشأة اللغة وبالتأمل فيها نرى أن بعضها يدعى حدوث لغة الإنسان الأول دفعة واحدة كاملة لا نقص فيها، وبعضها يدعى أنها تدرجت من البساطة إلى التركيب وأنها بدأت ساذجة ناقصة ثم كملت فيما بعد شأنها فى ذلك شأن لغة الأطفال والأمم البدائية، فأصحاب التوقيف والاصطلاح يدعون كمال اللغة منذ نشأتها حسب تصورهم وأصحاب المذاهب الأخرى يؤخذ من كلامهم تدرج اللغة ونموها شيئا فشيئا حسب التقدم الإنسانى.

وهذه المقدمة ضرورية لفهم اعتقاد أصحاب تلك الآراء فى حدوث الأسماء والأفعال والحروف وأيها سبق الآخر، فأرباب التوقيف ادعوا – كما سبق بيانه –

---

(١) الإشارات. (٢) اللغة ٣٢، ٣٣. (٣) فقه اللغة للمبارك ١١.

أن الله تعالى علم آدم جميع اللغات بما فيها من أسماء وأفعال وحروف، وأرباب الاصطلاح ادعوا أن بنى البشر وضعوا جميع اللغات بما فيها – كذلك – الأسماء والأفعال والحروف، وعلى هذا يمكن فهم رأيهم فى سبق أحد هذه الأجناس الثلاثة فواضح من ذلك أنهم يقولون بوقوع جميع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة بحيث لم يتقدم أحدها على الآخر ويوضح لنا ذلك ما نقله ابن جنى عن أستاذه أبى على وهو أحد القائلين بالاصطلاح والتواضع فى نشأة لغة الإنسان، وملخص ما نقله «أن اللغة وقعت طبقة واحدة كالرقم تضعه على المرقوم والميسم يباشر به صفحة الموسوم لا يحكم لشيء منه بتقدم فى الزمان» (١) ويقول ابن جنى فى تفصيل هذا الرأى وتأييده: اعلم أن أبا على – رحمه الله – كان يذهب إلى أن هذه اللغة – أعنى ما سبق منها ثم لحق به ما بعده – إنما وقع كل صدر منها فى زمان واحد وإن كان تقدم شيء منها على صاحبه فليس بواجب أن يكون المتقدم على الفعل الاسم ولا أن يكون المتقدم على الحرف الفعل وإن كانت رتبة الاسم فى النفس من حصة القوة والضعف أن يكون قبل الفعل والفعل قبل الحرف وإنما يعنى القوم بقولهم إن الاسم أسبق من الفعل أنه أقوى فى النفس وأسبق فى الاعتقاد من الفعل لا فى الزمان فأما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدموا الاسم قبل الفعل ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل فى الوضع قبل الاسم وكذلك الحرف، ثم يدلل على أنها وقعت دفعة واحدة ولم يتقدم أحدها على الآخر بما يأتى:

١– أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم وعرفوا مصاير أمورهم فعلموا أنهم محتاجون إلى العبارات عن المعانى وأنها لابد لها من الأسماء والأفعال والحروف فلا عليهم بأيها بدأوا أبالاسم أم بالفعل أم بالحرف لأنهم قد أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بهن جمع إذ المعانى لا تستغنى عن واحد منهن (٢).

٢– وجود أسماء مشتقة من الأفعال نحو قائم من قام ومنطلق من انطلق ألا تراه يصح لصحته ويعتل لاعتلاله نحو ضرب فهو ضارب وقام فهو قائم وقاوم فهو مقاوم فإذا رأيت بعض الأسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز أن يعتقد سبق

---

(١) الخصائص ٢ / ٤٠. (٢) المصدر السابق ٢ / ٣٠.

الاسم للفعل فى الزمان وقد رأيت الاسم مشتقا منه ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه [١].

٣- اشتقاق الاسم من الاسم «فإن المصدر مشتق من الجوهر كالنبات من النبت وكالاستحجار من الحجر وكلاهما اسم [٢].

٤- اعتلال المضارع لاعتلال الماضى وهذا يجعل الماضى أسبق من المضارع مع أن أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضى [٣].

٥- اشتقاق كثير من الأفعال والأسماء من الحروف فالأول نحو قولهم سألتك حاجة فلوليت لى أى قلت لى لولا وسألتك حاجة فلا ليت لى أى قلت لى لا والثانى نحو قولهم اللالاة واللولاة فاشتقوا المصدر من الحرف وإن كان الحرف متأخرا فى الرتبة عن الأصلين قبله الاسم والفعل وكذلك قالوا: سوفت الرجل أى قلت له سوف وهذا فعل - كما ترى -، مأخوذ من الحرف ومن أبيات الكتاب:

لو ساوفتنا بسوف من تحيتها سوف العيوف لراح الركب قد قنع[٤]

كذلك - عند ابن جنى - جميع تصرف (نعم) إنما هو من قولنا فى الجواب نعم، من ذلك النِّعمة والنَّعمة والنعيم والتنعيم ونعمت به بالا، وتنعم القوم والنعمى والنعماء وأنعمت به له وكذلك البقية وذلك أن نعم أشرف الجوابين وأسرهما للنفس وأجلهما للحمد. . . كما قالوا بجلته أى قلت له بجل أى: حسبك حيث انتهيت فلا غاية من بعدك ثم اشتقوا منه الشيخ البجال والرجل البجيل فنعم وبجل - كما ترى - حرفان وقد اشتق منهما أحرف كثيرة وكان الأمر كذلك دون أن يكون ذلك الحرفان مشتقين من النعمة والنعيم والبجال والبجيل. لأن الحروف يشتق منها ولا تشتق هى أبدا وذلك أنها لما جمدت فلم تتصرف شابهت بذلك أصول الكلام الأول التى لا تكون مشتقة من شىء لأنه ليس قبلها ما تكون فرعا له ومشتقة منه. . . وقد كثر اشتقاق الأفعال

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٤.
(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٤.
(٣) المصدر السابق ٢ / ٣٥.
(٤) المصدر السابق ٢ / ٣٧.

من الأصوات الجارية مجرى الحروف نحو هاهيت وحاحيت وعاعيت وجأجأت وحأحأت وسأسأت وشأشأت وهذا كثير فى الزجر [١].

فلهذه الأدلة كان وقوع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة دون الجزم بتقدم أحدها على الآخر لأنه يحتاج إليها جميعها فى التعبير عن المعانى ووجود تلك الاشتقاقات السابقة بالتناوب بحيث يشتق هذا من ذلك تارة وذاك من هذا تارة أخرى ويؤخذ كل من الأصلين الكبيرين الاسم والفعل أحيانا من الحرف كل ذلك جعل أصحاب هذا الرأى لا يستطيعون الحكم بالتقدم أو التأخر لأى منهما وقد قال ابن جنى: «إن هذا مذهب أبى على وبه كان يأخذ ويفتى» [٢].

ويبدو أن ابن جنى موافق لأستاذه فقد عرض لرأيه وأتى بالأدلة الكثيرة لتأييده وأكد فى نهايتها صحة هذا الرأى بقوله: فقد علمت بما قدمناه وهضبنا فيه قوة تداخل الأصول الثلاثة الاسم والفعل والحرف وتمازجها وتقدم بعضها على بعض تارة وتأخرها عنه أخرى فلهذا ذهب أبو على رحمه الله إلى أن هذه اللغة وقعت طبقة واحدة [٣]، ثم إنه يحكى قولى أبى الحسن فى المبنى من الألفاظ فقال: وكان أبو الحسن يذهب إلى أن ما غير لكثرة استعماله إنما تصورته العرب قبل وضعه وعلمت أنه لابد من كثرة استعمالها إياه فابتدأوا بتغييره، وقد كان أيضا أجاز أن يكون قد كانت قديما معربة فلما كثرت غيرت فيما بعد، ثم فضل القول الأول، لأنه أدل على حكمة العرب وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها [٤]، وهذا يعنى ميله إلى أن العرب وضعت ما وضعت من ألفاظ وقواعد فى آن واحد وقد نفى تقدم أى من الأنواع الثلاثة فى الزمان وتأخر شىء منها بقوله: فإن قلت: هلا ذهبت إلى أن الأسماء أسبق رتبة من الأفعال فى الزمان كما أنها أسبق رتبة منها فى الاعتقاد واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت إليه إذ كان الواجب أن يبدأوا بالأسماء لأنها عبارات عن الأشياء ثم يأتوا بعدها بالأفعال التى بها تدخل الأسماء فى المعانى والأحوال ثم جاءوا فيما بعد بالحروف لأنك تراها لواحق بالجمل بعد تركبها واستقلالها بأنفسها نحو إن زيدا أخوك وليت عمرا عندك وبحسبك أن تكون كذا؟ قيل يمنع من هذا أشياء [٥] ويسوق الأدلة السابقة.

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٥–٤٠.
(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٠.
(٣) المصدر السابق ٢ / ٤٠.
(٤) المصدر السابق ٢ / ٣١، ٣٢.
(٥) المصدر السابق ٢ / ٣٢، ٣٤.

ويبدو أنه كان يفهم حقيقة التقدم فى الزمان – كما تنطق به عبارته السابقة – عير أن ما يراه من ظواهر اللغة يصرفه عنه فلا يسعه إلا أن يسلم برأى أستاذه وهما مع ذلك نحويان متأثران بنظرات الأقدمين إلى ألفاظ اللغة فيرى البصريون والكوفيون أن الأسماء قبل الأفعال والحروف تابعة للأسماء لأن الفاعل سابق لفعله والأسماء سابقة للإعراب والحروف عوامل فى الأسماء والأفعال مؤثرة فيها المعانى وتقدم العامل على المعمول لا يوجب أن تكون الحروف سابقة للأسماء والأفعال نفسها فى الوجود، لأن معنى ذلك أن عملها الإعرابى وهو الرفع والنصب والخفض والجزم يأتى بعدها لا أنها تتقدم فى وجودها الأسماء والأفعال[1]، وقال ابن الانبارى فى تعليل ذلك:

فإن قيل فلم قدم الاسم على الفعل والفعل على الحرف؟ قيل إنما قدم الاسم على الفعل نحو زيد قائم وأخر الفعل عن الاسم لأنه فرع عليه لا يستغنى عنه فلما كان الاسم هو الأصل ويستغنى عن الفعل والفعل فرع عليه ومفتقر إليه كان الاسم مقدما عليه وإنما قدم الفعل على الحرف لأن الفعل يفيد مع الاسم نحو قام زيد وأخر الحرف عن الفعل لأنه لا يفيد مع اسم واحد لأنك لو قلت بزيد أو لزيد من غير أن تعلق الحرف بشيء لم يكن مفيدا فلما كان الفعل يفيد مع اسم واحد والحرف لا يفيد مع اسم كان الفعل مقدما عليه[2].

وهذا الرأى فى جوهره وهو تقدم الأسماء على الأفعال والأفعال على الحروف يتفق والرأى الحديث إلا أنه بنى على اعتبار نحوى بحت ولم ينظر إلى الناحية الاجتماعية التطورية بل إن ابن جنى – حكاية عن أستاذه – فسر تقدم الأسماء بتقدمها فى النفس لا فى الزمان كما رأينا، وهذا يعد تصويرا لرأى التوقيفيين والاصطلاحيين على السواء، وهذا الرأى فى وقوع الأسماء والأفعال والحروف دفعة واحدة مبنى على أن لغة الإنسان الأول كانت كاملة كما تصوره أصحاب التوقيف والاصطلاح وقد طبق ذلك أبو على علَى اللغة العربية كما هو واضح والحقيقة أن لغة الإنسان الاول لم تكن بهذا الكمال الذى تصوره والعربية التى بنى عليها أبو على مبدأه لا يصدق عليها ذلك إلا بعد أن ارتقت ووصلت إلى أوج مجدها، ويتضح ذلك من أدلته التى ساقها ابن جنى وهى تتلخص فى الاشتقاقات المتعددة التى أكد بها احتمال تقدم أى الأنواع الثلاثة فمرحلة

(١) الإيضاح للزجاجى ٨٣، ٨٤ بتصرف. (٢) أسرار العربية ط ليدن ص٩.

الاشتقاق على الصورة التى استدل بها ليست بدرجة من السذاجة والبساطة التى كانت عليها لغة الإنسان الأول فيما يظن بل إنها تعد مرحلة راقية وصلت إليها اللغة العربية بعد تطورات متطاولة كما سيتبين ذلك من مناقشة الرأى الثانى.

أما أرباب المذاهب الأخرى ولا سيما القائلين بأن اللغة نشأت عن محاكاة الأصوات مستدلين على ذلك بأحوال الأطفال والأمم البدائية فإنهم يقولون ههنا بتدرج حدوث الألفاظ المذكورة بأنواعها الثلاثة تبعا لسنة النشوء والارتقاء فالطفل تبدأ لغته ساذجة ناقصة ثم تتدرج كالآتى:

١- **مرحلة المادة**: وهى التى يقصر فيها فهمه فلا يعرف إلا المحسوسات ومن هنا كان أول ما يظهر فى لغته أسماء الذوات.

٢- **مرحلة العمل**: وهى التى ينمو فيها تفكيره فتبدأ كلمات المعانى فى الظهور على لسانه وهى الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى كلى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما إليهما.

٣- **مرحلة العلاقات**: وتلك تبدو مع ارتقاء تفكيره واكتماله فتظهر الحروف والروابط الأخرى وكانت تلك متأخرة الظهور فى لغته «لأنها أدق أنواع الكلمات»[١].

ولغات الأمم البدائية تكون ساذجة مبهمة فى أول أمرها ثم تتدرج تبعا لرقيها وتقدمها على الوجه التالى:

١- **دور التقليد**: وفيه تظهر الألفاظ الحسية التى تحاكى الأصوات الطبيعية التى تحيط بهم وتكون تلك الألفاظ قليلة بسيطة البناء لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف ولذلك يعبرون بالكلمة الواحدة الحسية عن المعانى التى لم توجد لها ألفاظ معنوية بعد «فإذا اضطروا للتعبير عن قولنا (صلب) قالوا (حجر) وعن (طويل) قالوا (ساق) وعن (مستدير) قالوا (قمر)»[٢].

٢- **مرحلة تولد الألفاظ البسيطة الدالة على المعانى**: وتحدث تالية

---

(١) علم اللغة د. وافى ١٤٠ بتصرف.

(٢) الفلسفة اللغوية ١٢٧، ١٢٨.

للمرحلة السابقة تبعا لتقدم أفكارهم وحياتهم الاجتماعية «فتتحول حكاية الصوت من الدلالة على ما يحاكيه مباشرة إلى ما يقرب منه أو يماثله بالتدريج حتى تتولد فيها الأدوات والحروف ولا مميز فيها بين الاسم والفعل والحرف وإنما يدل على ذلك بالقرينة فتستعمل اللفظة الواحدة تارة اسما وطورا فعلا وأخرى نعتا أو أداة»[١].

٣- مرحلة التمييز بين الاسم والفعل وسائر الأجناس والمشتقات[٢]:

وتحدث تلك المرحلة تبعا لازدياد النمو الفكرى لتلك الجماعة الإنسانية «فيتولد فيها المميز بين الاسم والفعل» وكذلك تظهر مميزات الجنس والعدد والاشتقاق «مع خلوها من حروف الجر والعطف وسائر الأدوات»[٣].

٤- مرحلة ظهور الحروف: وهذا عند رقى تلك الجماعة إلى درجة تسمح لهم بأن ينوعوا ألفاظ لغتهم «بالنحت على كرور الأيام فتتحول الأسماء أو الأفعال الدالة على معنى فى نفسها إلى الحروف أو الدالة على معنى فى غيرها على طرق وأساليب لا يمكن حصرها»[٤].

ومن ذلك التحديد للمراحل التى تمر بها لغة الأطفال والأمم البدائية التى تتدرج فى الحضارة اتجه أصحاب الآراء السالفة إلى القول بأن لغة الإنسان الأول «نشأت ناقصة ساذجة مبهمة فى نواحي أصواتها ومدلولاتها ثم سارت بالتدريج فى سبيل الارتقاء»[٥]، وأشهر نظرية للبحث فى سبق الاسم أو الصفة أو الفعل هى نظرية العلامة ريبو Ribot تقول: الصفة هى أول ما ظهر ثم تلتها أسماء

---

(١) الفلسفة اللغوية ١٢٨، ١٢٩، وفقه اللغة للاسكندرى ٨٨.

(٢) هذا مخالفة للأستاذ جورجى زيدان حيث يدعى أن ظهور الأجناس والعدد وصيغ الاشتقاق متأخرة عن مرحلة ظهور الحروف ولكن الذى يبدو أن إدراك الأمور المعنوية مرحلة واحدة تظهر فيها الأفعال والمشتقات التى تقابل الصفات عند الأطفال فهى تظهر مع الافعال. انظر الفلسفة اللغوية ١٢٩ - ١٣١.

(٣) الفلسفة اللغوية ١٢٩.

(٤) المصدر السابق ١٣٠ ويقول الأستاذ الاسكندرى: الاقرب إلى التحقيق أن الحروف من المرتجل الموضوع لمعنى جزئى والمحرف عن أصل مفرد أو مركب) فقه اللغة ٨٣.

(٥) علم اللغة ١١٠ والمسلك اللغوى ٩٨.

المعانى وأسماء الذوات ثم ظهرت الأفعال ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف [١].

ولكننا لو قارنا مقارنة صحيحة بين هذا القول وبين لغة الأطفال والأمم البدائية لوجدنا أن المحسوس هو أول ما يظهر - كما سبق بيانه - على لسان الأطفال والبدائيين مما يؤكد ظهور أسماء الذوات فى أول مرحلة ثم يليها ظهور أسماء المعانى والأفعال والصفات ثم تظهر الحروف فى آخر المراحل [٢] وهذا ما يؤيده بعض المحدثين يقول «إن المرحلة اللغوية فى عهد آدم لم تتجاوز المرحلة العلمية التى يقول بعض اللغويين المحدثين إنها المرحلة الأولى فى النشأة اللغوية فاسم الشيء بدأ علما ثم عممت دلالته وأصبح اسم جنس ثم عن هذا الاسم جاء الحدث أو الفعل أما الحروف فمما لا شك فيه أنها كانت فى أصل وجودها كلمات مستقلة الدلالات ثم انتقص من أطرافها وأصبحت مع الزمن على الصور المألوفة لنا»[٣] وبناء على ذلك فظهور الأفعال نفسها كان متدرجا أيضا خلافا لما ذهب إليه أنصار التوقيف والاصطلاح من وقوعها دفعة واحدة[٤] ونحن حين نفكر تفكيرا منطقيا فى تلك الفكرة الزمنية ندرك أن الماضى يلتقى بالمستقبل عند ذلك الزمن الذى نسميه الحاضر كما ندرك أن الزمن الحاضر لا يعدو أن يكون نقطة اتصال ليس من السهل تحديد مداها[٥] ومع اتصالها الدقيق فالمقبول هو تدرج حدوثها عند الإنسان وتدرجها - عند المحدثين - يوافق ما ذهب إليه أبو بكر بن السراج من القدماء [٦] وهو أن أولها ظهورا هو الحاضر ثم الماضى ثم

---

(١) علم اللغة ١١٣.

(٢) هناك آراء أخرى لا صحة لها. انظر علم اللغة ١١٢ / ١١٣، وفقه اللغة للاسكندرى ١٦، ١٧.

(٣) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ٤٢.

(٤) يدل لذلك قول ابن جنى بعد عرضه لرأى أبى على : وهذا يضيق الطريق على أبى إسحاق وأبى بكر فى اختلافهما فى رتبة الحاضر والمستقبل. الخصائص ٢ / ٣١.

(٥) من أسرار اللغة ط٣ ص١٥٢.

(٦) انظر: الخصائص ٢ / ٣١، ٣ / ٣٣١ ويرى الزجاج وتلميذه الزجاجى أن أسبق الأفعال المستقبل ثم الحال ثم الماضى لأن الشيء لم يكن ثم كان ثم يصير فى الحال ثم يصير ماضيا ويرى بعض النحاة أن الماضى أول الأفعال وهى آراء بعيدة عن واقع اللغة. الإيضاح ٨٥ والأشباه والنظائر ١ / ٥٠ بتصرف والارتشاف الورقة ٣١٤ وشرح السيرافى للكتاب ١ / ١٣.

المستقبل وهذا حسب ما تقدم من ملاحظة حال الأطفال «فعرف أولا الزمن الحاضر وما يتضمنه من أحداث لأنها محل اهتمامه وعنايته فلما نما إدراكه وقويت ذاكراته بدأ يذكر أحداثا انتهت ومضى عليها بعض الوقت بعد أن تركت فى ذهنه أثرا قويا جعله يذكرها حينا بعد حين ولا سيما حين تتكرر نفس التجارب الماضية» ثم لا يلبث أن يتطلع إلى أحداث المستقبل فتظهر عنده الأفعال المستقبلة.

وقد مر الإنسان فى تلك المراحل نفسها واحتاج للتعبير عن تجاربه إلى كلمات مستقلة تدل على الحاضر ثم الماضى ثم المستقبل وهكذا حتى وصلت إلى الحال الدقيقة التى نلمسها فى اللغات المتفرعة عن اللغة الأولى للإنسان [1] وهذا التصور – وإن كان مبنيا على الظن والحدس فمن الصعب على الفيلسوف أو اللغوى أو المؤرخ أن يحكم فى أصل نشأة اللغات حكما فاصلا[2] – تصور واقعى وهو أقرب إلى الصحة والقبول ولا يتنافى مع ما أثبتناه من احتمال وجود لغة صوتية تفاهم بها آدم مع الملائكة إذ يتوقع – كما سبق – أن تكون ألفاظ تلك اللغة محدودة ومتمشية مع بدء تاريخ الإنسان ثم إن ارتقاءها واكتمالها حدث مع تقدم الإنسان ومحاكاة الأشياء مما سبب ظهور تلك الأنواع على نحو تطورى متتابع هو هذا النحو المرسوم.

* * *

(١) من أسرار اللغة ط٣ ص١٥٠، ١٥١ بتصرف.

(٢) دراسات فى العربية وتاريخها ص٨.